قرية الدكتور فخري

أخذ الدكتور فخري يذرع شرفة منزله الريفي شارد الفكر وعينه على الطريق العام الذي يبدو من بعيد خلال أشجار التفاح التي انتظمت في صفوف. وكانت السيارات تمر الاّ أن واحدة منها لم تنحرف الى طريق القرية التي يملكها..

كانت جماعة من الفلاحين ينقلون السماد الى الأشجار، وغيرهم يحرثون الأرض بالمعاول وبمحاريث قديمة لزرعها بالخضر. ومرت أمام المنزل فلاحة ترعى قطيعا من الماعز، وفي النهير كان سرب من البط يسبح وعلى ضفته ثلاثة أولاد في أسمال يلتقطون لأمهاتهم ما نما على الضفة من جرجير، ويعابثون البط بحجارة صغيرة.. ومن بعد بدت أكواخ الفلاحين القديمة المتلاصقة بنوافذها الصغيرة القاتمة وكأنها وجوه تعسة غضنة المحيا تحدج القصر المشرف بنظرات غضبى.

كانت القرية ساكنة هادئة بعد أن انتهى موسم القطاف وانتقل التفاح الذهبي من على الشجر الى البرادات في منزل الدكتور فخري ليباع في غير موسمه بأسعار غالية.. ولم يكن يسمع سوى هدير المحرك في النهير، وقوقأة دجاجات تمرح، وتلتقط الحب، وخوار بقرة ترعى..

وفي السماء كانت الغيمات الرقيقة تحجب الشمس وتترك القرية منداة حالمة بألوانها الخريفية المتماوجة بين الخضرة والإحمرار قبل أن تساقط أوراق الشجر..

وأحس الدكتور فخري بكآبة تعض قلبه وهو قادم على تلك اللحظة الفاصلة في حياته، وهو يضع قدمه على منزلق هائل الخطورة.. وتنهد بأسى وهو يتمتم لنفسه:

- ماجدوى الإخلاص للعلم اذا كان سيحرمني هذا النعيم؟ ما جدوى الإخلاص للعلم اذا كان سينتهي بي لكسب لقمتي بعرق الجبين؟

كان الدكتور فخري رجلا ضئيل الجسم قصير القامة، ولكن الطبيعة عوضته عن هذا بذكاء حاد.. كانت حوافز التفوق على أقرانه عنيفة في نفسه فاستطاع أن يستغل امكانياته كلها في تثقيف نفسه وصقل مواهبه. كان أديبا، دكتورا في الإقتصاد، مارس الحياة السياسية مبكرا وامتهن تدريس الإقتصاد في الجامعة، وألّف كتبا، وانتخب نائبا، وعين وزيرا في حكومات سابقة. وبالرغم من كل تلك

النجاحات بقيت في نفسه تلك العقدة التي تثير نوازع الإنسان الفردي لمزيـد مـن القوة والتملك والثروة.. وكان الدكتور فخري أحد هؤلاء الناس الذين يرتفعون عن الشعب ويكرهونه في أعماقهم، وينكرون عليه حقه في الحياة الكريمة، فحمل الحقد على الإتجاهات التقدمية التي سادت بين مثقفي البلـد، وتطالـب برفـع مـستوى الشعب، اذ أنه وجد فيها ما يهدد نعيمه ويطيح بنفوذه..

ومد بناظريه الى ما يملك من أراض شاسعة خصبة، وهو يواري يديـه فـي جيبي سترته والهواء يطاير شرابة طربوشه الطويل الداكن الإحمـرار، وهمـس لنفسه:

- كل هذا ملكي.. الفلاحون وعائلاتهم ملكي، عملهم وإنتاجهم ملكي!.. فأين أكون ان وجدت تلك الأفكار "المخربة" مجالا خصبا بينهم؟

لم يكن الدكتور فخري يستطيع احتمال تغير ما في نسق حياته، بـل يريـد أن يثرى ويزداد ثراء.. ان الثراء دليل الذكاء وبعد النظر، انه قوة الإنسان. ألم يكـن والده الذي بدأ حياته "مهربا" راجح العقل حين اشـترى أراض شاسـعة واسـعة بأبخس الأثمان، بقروش معدودة للمتر الواحد؟ ورماها جانبا.. فمرت الأيـام واذا بها تدخل التنظيم، واذا بوالده يصبح بين ليلة وضحاها في طبقة الملاكين الكبـار؟ ان الثراء ذكاء وبعد نظر، بل هو حظ. فلماذا يريد هؤلاء الناس أن ينتزعوا منـه ما نال بالذكاء والحظ؟

دخلت تلك الأراضي في التنظيم فأثرى والده.. انه حقا قد رشـا أحـد كبـار مهندسي البلدية فأدخل أراضيه في مخطط المدينة بـالرغم أنهـا أراض رطبـة زراعية لا تصلح للبناء.. وكان الخير لأهالي دمشق أن تمتد دمشق حيث الأرض جافة عالية والهواء نقي.. ولكن ماذا في الأمر؟ انه كله مهارة وذكاء وحظ، والمال يجر المال.. انه سار على خطى والده وباع الأراضي الغاليـة واشـترى قريـة مجاورة من اقطاعي، واستخدم الفلاحين، ووظف باقي أمواله في مشاريع البنـاء، فنمت نموا متسارعا هائلا، والهجرات الى المدينة من القرى قائمة على قدم وساق. وبدت له الحياة رخية ناعمة ألقة.. ما أروع أن يتكاثر ماله دون عمـل أو جهـد، ودون أدنى معرفة فنية أو زراعية! ان جيشا من العمـال والفلاحـين يكدسـون

بعرقهم وجوعهم وعريهم المال في خزينته!.. ما أروع حظك يا دكتور فخري لقد ولدت تحت نجمة سعد.. ان لكل ابن من أبنائك الثلاثة سيارة خاصة به.. وكلهـم درسوا في جامعات أميركا، وكلهم ينتظره ذلك المستقبل الباسم المـشرق والنفـوذ الكبير.. ماذا يريد هؤلاء المثقفون التقدميون أن يفعلوا؟ أن ينزعـوا الأرض مـن تحت قدميك، أن يسلبوك نفوذك وعزك وكرامتك؟.. ان العمال والفلاحين صامتون لا يتكلمون، انهم لا يشكون ولا يتوجعون.. فلماذا ضجيجهم باسم حقوق العمـال والفلاحين هؤلاء المخربون؟

كان الدكتور فخري كوالده بعيد النظر، فاستطاع أن يرى بعينيه قوى الـشعب النامية في سوريا، ان الكارثة لا بد آتية.. لقد أصابت العدوى حتى طلابه، طلابه الذين كانوا يسحرون من قبل ببيانه، أصبحوا يناقشونه وعلـى أفـواههم بـسمات السخرية.. ولو أخلص الدكتور فخري مع نفسه لوجد لهم الأجوبة المقنعة.. ولكن كيف يفعل حين يهدد الإخلاص للعلم مصلحته كفرد؟ سأله أحد طلبته وهو يـشرح أحد الدروس كيف تكون الآلة سبب رفاهية الإنسان عندما سـببت تـسريح آلاف العمال وموتهم جوعا فأجاب:

- طبعا! فلولا الآلة لم يكن هناك إنتاج كثير وزيادة الإنتاج زيادة في الرفاهية..
- رفاهية من عندما يعم البؤس والشقاء آلاف العمال وعائلاتهم؟
- ان الإنسانية عليها أن تدفع مثل هذه الضريبة في تقدمها. فالتقـدم الآلـي لـه وجهان: سلبي وايجابي.. فهو حين يزيد الإنتاج، يستغني عن كثير مـن الأيـدي العاملة.. فهل من المعقول أن تتوقف الإنسانية عن الإختراع والتقـدم لأن هنـاك بعض العمال يستغنى عن مجهودهم؟
- معنى هذا أن زيادة الإنتاج تزيد في شقاء العمال..
- نعم!
- أي أن الآلة سببت شقاء العمال.
- بل رفعت من سويتهم..

وهكذا وقف أمام طلابه وهو الذكي الأريب يدور ويلف ويراوغ حتى أضـحك تناقضه طلابه.. ووقف أحدهم يتضاحك ويقول:

- لم نفهم أخيرا هل زادت في الرفاهية أم زادت في الشقاء؟

وانبرى الطالب الأول مجيبا:

- يا أستاذ! ان شقاء العمال وموتهم جوعا ليس بسبب الآلة بـل بـسبب تملّـك الرأسمالي لهذه الآلة، واساءة استعمالها.. ولو ملكها الشعب لما كان هناك عاطـل عن العمل، ولكانت وفرة الإنتاج تزيد حقا في رفاهية الناس!.

وغضب الدكتور فخري، وراح يرتجف، ويلوح بيديه بحركات مضحكة:

- لماذا لا تصبح أنت الأستاذ ما دمت تملك كل هذه المعرفة؟ ان الآلة هي التـي تنتج، وهذه الآلة يملكها صاحبها وهو أحق الناس بملكية إنتاجها!..

وقال طالب آخر:

- ان الآلة لا تعمل بنفسها دون عامل.. والآلة نفسها لـم تـصنع دون عمـال، فضلا عن أن قيمتها كلها تنتقل بمجموعها الى قيمة الإنتاج ويدفعها المستهلك عند بيع السلع..

عاد الحوار متأججا في قاعة الدرس، وكان الدكتور فخري يهيئ أسئلة الإمتحان لآخر العام لطلبة الإقتصاد، ولما انتهى من تصحيح الأوراق كان أن رسب أولئك الذين كانوا يحرجونه في قاعات الدرس ولكن هذا لم يشف له غليلا.. جـاء الـى قريته كي يستريح ويهدأ، وقد تملّكه الإعياء والنصب حتى الغثيـان.. انـه يـرى بعينيه مجده يتقلص الى غير رجعة.. ان أفكارا جديدة تنبثق ساطعة قوية تكـشف كل ما ساهم فيه من لفلفة الأمور في أدبه وعلمه.. وكثيرا ما لمـح مـن بعـض زملائه الأساتذة التقدميين نظرات متهمة وابتسامات متهكمة تطعن كبرياءه وتمـلأ بالحقد قلبه.. فلا عجب أن تلقى تلك الدعوة التي تحارب الإتجاهات اليسارية هوى من نفسه.. أصغى باهتمام الى صديقه "أبو النور" يحدثه عن الحركـة، ورحـب باستقبال "المقدم عبد الرزاق" في قريته بعيدا عن عيون الناس، ولكنه مع ذلك، بقي حذرا مترددا في مؤازرة الحركة خوف فشلها، وغضب جماهير الشعب..

ولم تلبث أن انحرفت سيارة رمادية الى طريق القرية، وأثارت كثيرا من الغبار وهي تسير في ذلك الطريق الترابي الوعر.. ولما توقفـت عنـد بـاب الحديقـة

الخارجي هرع البستاني الى الباب مرحبا بالضيفين وقبل يديهما، فسحب أبو النور يده بتقزز لأنها لامست اليد المتربة وقال:

- هل الدكتور فخري موجود؟

- تفضلوا سيدي.. انه في الداخل!

ولمح أبو النور صديقه الدكتور فخري في الشرفة يلو ح له بيديه مـسلّما، ثـم يتوارى ليظهرعند الباب..

وأسرف "أبو النور" في عناق صديقه الدكتور فخري وتقبيله ليؤكد للمقدم عبـد الرزاق بأن صداقتهما متينة، وأن أمر الدكتور فخري بيده.. وهتف باهتمام بالغ:

- لماذا تبدو هكذا شاحب الوجه.. لم أر بين الأساتذة من يرهق نفـسه مثلـك!.. لماذا؟.. ان أحدا لا يقدر.. تعالوا نجلس هنا.. هات يا ديب كراسي!

ولم تترك ثرثرة أبو النور مجالا للدكتور فخري والمقدم عبد الرزاق بأن يتحدثا فيما اجتمعا من أجله، وهو يعتذر عن التأخير ويقفز من موضوع الى آخر.. ولكنه لم يلبث أن لاحظ تململ الدكتور فخري فقال فجأة وهو يبتر الحديث الذي كان فيه:

- ان المقدم عبدالرزاق سيحدثك عن تفاصيل الحركة!..

وأخذ الدكتور فخري يهز رأسه وينثل الورق الجاف المتساقط بطـرف عـود، وهو يصغي الى المقدم عبد الرزاق يتحدث عن الحركة.. لقد كان يحسب في ذهنه كل الإحتمالات، وكل كلمة يقولها، وكل خطوة يخطوها حتى لا يدفع غاليا ثمن ما يقول وينفعل.. انه يريد أن يقف قدما في المؤامرة وقدما خارجهـا، تمكنـه مـن نجاحها أن ينال حصة الأسد، وفي فشلها أن يفلت من العقاب.. ولما لوح له المقدم عبد الرزاق برئاسة الجمهورية ابتسم وقال متظاهرا بالتواضع:

- ان رئاسة الجمهورية لا تغريني الاّ بقدر ما تنسجم الحركة مع أهدافي.. كنـت قد وضعت بضعة نقاط من ميثاق أردته أن يكون هدف كتلة برلمانيـة لمقاومـة الإتجاهات اليسارية والحد من نشاطها، وأن تكون لي مجلّة أكتـب فيهـا آرائـي وأعدها لتكون مقدمة لأهدافي في تغيير الرأي العام..

وأخرج من جيبه ورقة كتب عليها بضعة بنود أخرى تتعلق بالمـال والـسلاح وناولها الى المقدم عبد الرزاق ثم أردف:

- ليس فيه كما ترى ما يتناقض مع حركتكم، فاذا أضفناه الى ميثـاقكم الـوطني أصبح لدينا ميثاق قوي يعتمد عليه..

* * *